إرادة الاختـــلاف

بلال الشريف(*)

أ. تقديم:

لعل سلطة المقدس هي ما يقع تحت وطأتها المتدينون إذ ليس لها على سواهم سبيل، ولا تحسب هذا قدحًا في التدين أو دعوة إلي مخالفة روح الأديان والتي هي في جوهرها طاعة وامتثال، وإنما هي محاوله بريئة لإنعاش الوعي الذاتي، من أبرز أنواع السلطات ولعل أبرز ما يميزها أنها يتخللها نوع من الإذعان التام أو القبول أو الموافقة طالما أن المرء قد رضي لنفسه بهذه أو تلك من العقائد، هذا الوجه من السلطة (سلطة المقدس) سريعًا ما يضحى تسلطًا حين يتخذ لنفسه أوصياء أو نصحاء، أو حين ينصّب البعض أنفسهم كذلك، أو حين نضفي نحن هذه القداسة علي بعض النصوص أو الأشخاص فنكون نحن صانعيها ونحن أيضًا من يعاني وطأتها أو يهيم بها وجدًا علي اختلاف الأحوال، فربما هذا وربما ذاك، فيصبح نوعًا من التسلط الإرادي. والمفارقة هنا أن الإرادة ليست نابعة فقط من الذات المتسلطة وإنما هي نابعة أيضًا ممن يعاني وطأتها، كأن الوقوع تحت نير التسلط أصبح نزوعًا ورغبة دفينةً لدى الأفراد، هم لا يُمنون أنفسهم بالخلاص منه، فإن أصابوا وأحسنوا فقد أطاعوا، وإن أساءوا وأخطأوا فعساهم يجدون عند هؤلاء الشفاعة والغفران.

(*). باحث ماجستير، بقسم الفلسفة. آداب القاهرة. bilal_moumin@msn.com

كما لا تجد بين هؤلاء من يتصور نفسه وقد وازى أحد هؤلاء المتسلطين قدرًا أو ضاهاه قيمة فتلك عطيه من الله وهبة منه، وهل لنا أن نسأل الله عما اختص به أقوامًا دون أقوام، أو ليس لله عبادًا قد أسماهم "المخلَصين"، أو ليس مَن أخبر إبليسَ بعد أن نسبهم إلي ذاته. قال تعالى "أن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين"[1] وإن تكن نفسك تهفو إلى مثال فالتصوف الإسلامى أحد أهم المجالات التي تظهر فيها "سلطة المقدس" وتتجلى فيه حيثيات التسلط، سواء أكانت سلطة الشيخ أو سلطة النص وما يرتبط بهما من سلطة للرمز، أو المريد على نفسه بحثًا عن تنقيتها وتطهيرها وتزكيتها، فنحن وإن كنا نعلم أن التصوف في جوهره تجربه ذاتيه، ونزوع فردى للوصول إلى مقام العبوديه حيث يُفرد المرء نفسه لله قلبًا وقالبًا، ولمطالعة الكمالات الإلهية والتمثل بها، حتى يخلع الله على العبد خلعة هذه الكمالات، فيصير له من رحمته حظًا ومن رأفته نصيبًا ومن جوده بضعة إن شاء وسعت الأرض ومن فيها.

ولكن يبقى السؤال: تلك هي الغايه فكيف السبيل؟ قد لا يأتي للجنة أو للنار ذكرٌ، هم لا ينكرونهما ولكنهم كذلك لا يُعلون من شأنهما، فلو أنهم يعبدون الله طمعًا في الجنة أو خوفًا من النار لكانوا كمن يعبد الجنة والنار وقد روي أنه قد أوحي الى داوود علية السلام كما يذكر (العز ابن عبد السلام) في كتابة "حل الرموز و مفتاح الكنوز" أن "يا داوود إن أحب أحبائي إلي من عبدني بغير نوال" ويروى عن عيسى عليه السلام أنة مر بقوم فسألهم عما يفعلون فقالوا

(1). الآية (٤٢) من سورة الحجر.

نعبد الله طمعا في الجنة، ومر بآخرين فسألهم عما يفعلون قالوا نعبد الله خوفًا من النار، فقال لهما بئس ما تعبدون مخلوقًا خفتم ومخلوقًا رجوتم، بالإضافة إلى أن الجنة تتعلق بأعمال الجوارح وهم يبحثون عن درجات القلوب، نعود لنسأل عن السبيل: كيف هو؟ عند الإجابة عن هذا السؤال تُنصب أول فخاخ التسلط، إذ لابد للمريد من شيخ يقوم بتربيته وتأديبه وترويضه، فتكاد لا تجد بين أعلام الصوفيه من يزعم أن بمقدور المرء أن يتخذ طريقه بمفرده، ليس فقط لأن أيسر السفر ما كان بصحبة خبيرٍ بمعالم الطريق، بل لأن الشيخ منوطٌ به هذا الدور من قبل الله تعالى، وهو الذي من شأنه أن يصل بالمريد إلي حيث قربه من الله، وفي هذا يقول الشعراني في "النفحات القدسيه" (أعلم رحمك الله تعالى أن أحدًا لم يبلغ قط إلى حاله شريفة إلا بملاقاة المشايخ ومعانقة الأدب معهم، وملازمة خدمتهم)، ويقول أيضًا "الشيخ البرهاني" وهو أحد متأخري الصوفيه. في ديوانه " شراب الوصل":

**وكل فتًى لبس المخيط على يدي		مرقعتي فيضٌ ولست بحائك**
**ألا إنما يسري المريد على يدي		وكل فتًى ينأى فليس بسالك**
**ومن قبس النور المُبين بقبضتي		يُضاءُ سبيل السير من كل حالك**

ولعل من المفيد أن نتحدث الآن عن المصدر الذي استمد منه الشيخ هذه السلطة.

٢. سلطة الشيخ "وليّ الله"

الشيخ أو الولي عند الصوفية هو العارف بالطريق وهو الخبير بشئونه وأسراره، وهو الذي لا يمكن السير -فضلا عن الوصول- إلا من خلاله. وتلك خاصة لهم من قِبل الله تعالى فقد قدر سبحانه ألا نستطيع التعرف إليه إلا من خلالهم، كما إننا لا نستطيع أن نصل إليه وإياهم إلا من خلال نبيه، ولما العجب! أو ليسوا هُم ورثة الأنبياء، أو ليسوا يقفون على نفس القدم مع أنبياء بني إسرائيل، أو لم يرد الخبر عن رسول الله (صلي الله عليه وسلم) أنه قال: (إن لله عبادًا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء لمكانهم وقربهم من الله عز وجل)[1] أو لم يطلع الخضر في علم المقادير على شأنهم وفضلهم فتمنى أن يكون من هؤلاء فكان أن مد له في عمره ثم له أن يُحشر معهم، ومن هو الخضر؟ هل كان من أنبياء الله؟ لا. لم يكن ولكن أنظر كيف كان حاله مع نبي الله موسى وحال موسى معه، ألم تري أدب موسى في إتباع الخضر وموسى نبي الله والخضر ليس كذلك فالقشيري صاحب "الرسالة القشيريه في علم التصوف" يقول: (لو لم يكن للمريد من معرفة مقام الأدب مع الشيخ إلا قول موسى عليه السلام للخضر (هل أتبعك على أن تعلمنِ مما علمت رُشدا) لكان في ذلك كفاية[2].

فعلى المُريد أن يكون له من أدب الصحبة وحسن الاتباع مثل ما كان لموسي في صحبة الخضر وإلا فات على المُريد الكثير من المعارف والتجليات

---

(1). الحديث نقلًا عن الحكيم الترمذي. ختم الأولياء صـــ٢٠٦.

(2). نقلا عن كتاب الوصايا لابن عربي صـــ٣٣٣

وعطل نفسه في السير والوصول، وقد تسألني ألا يمكن للمُريد أن يجتاز طريقه بمفرده؟ فأجيبك كما يجيبون. لا ليس يمكن فالطريق مسدود والسالك مردود كيف يمكنك أن تصل إلى الله بنفسك وهي التي أوردتك موارد الهلاك، وأسكنت قلبك من علائق ولمائم الأرض ما يُقعد سيرك ويحط همتك، أفما تدري يا بني أن نفسك لك عدوا كما أن الشيطان لك عدوا وأن لكلا منهما خدما وعمالا قد أبوا لأنفسهم إلا أن يُضلوك منذ تعهد إبليس لربه بالغواية وطلب الأعوان فكان له النفس والهوى، ثم إن الله لم يكن ليدعنا ضعفاء هُزلاء أمام غوايه إبليس وهوى النفس وميولها، فخلق لنا بِضعة جوفاء سماها قلباً لأن شأنها التقلب، هذا القلب هو محل نظر الله في المخلوقات وهو ما وسِع الله حين لم تسعه أرض ولا سماء، وهو مهبط الأنوار والواردات الإلهيه والمعارف الربانية، هذه الأنوار في حاجة لمن ينظمها كي تحقق فوائدها، وإنا بإمكاننا أن نكون لها صنبورا نضع بقدر ما يسع الإناء وإلا فاض عنه فأحدث شططا وأنطق شطحا وأصبح صاحبه في شأنه متهما، إنا لا نرضي يا بُني أن تجتاز بمفردك الطريق فتضل في شِعابه، فإن طريقنا تيه وكم في هذا التيه ضلّت من مطايا، (وكم من مُريد غلط، أستمع إلي نجواه فركن إليها، وقد مازجته النفس بدواهيها فإذا هو ضحكة للشيطان تحدثه نفسه بشيء فيحسبه من الله)[1].

إني لأرى في عينيك عجبًا لست أدري له سببًا، ولكن أنصت إلي إن لله أقواما قد أصطنعهم لنفسه هُم رسل الله وأنبيائه وأوليائه، وقد مضى عهد الرسل

(1). الحكيم الترمذي: ختم الأولياء صـ١٧٦.

والأنبياء وبقيت الولاية، فمن الأولياء من اجتباه الله بمشيئته ومنهم من هداة إليه حين أناب، فصاروا بسبيله عارفون وبطريقه خبراء ألم تسمع قوله (الرحمن فسئل به خبيرًا)[1] فمن استرشدنا أرشدناه، ومن أعرض عنا أشفقنا عليه وأهملناه، فاختر لنفسك ما تشاء واعلم أنه لو أرادك لأقامك له.

فيجد المرء نفسه وقد أسره اللفظ واستهوته العبارة وسحرته الغاية أي غاية "الله" منتهى الغايات، فيجد نفسه مُريدا بلا إرادة، في سفرٍ بلا نهاية، مُغمض العينين في طريقٍ هي أوعر من كل القِفار، علي نفسه متسلطا كي يكون لجماح نفسه كابحًا، تغيرت لديه المفاهيم وتبدلت أشياء بأشياء، فالمعارف الحسية إلى كشوف وإلهامات، والظاهر إلي باطن، والشريعة إلي حقيقة، والنص من تفسير إلي تأويل، والولاية لفظ عام يجب أن يُخصص فمنهم الأقطاب والأوتاد والأبدال والنقباء والنجباء وآخرين من دونهم، ومحمد إلي حقيقة محمدية وطه تشير إلى غير ما تشير إليه يَس، وهنا ننتقل إلي مرحلة أخرى من التسلط.

٣. التسلط الارتحادي "تسلط المُريد"

فما أن أيقن المُريد أنه لا يملك من أمر نفسه شيئًا، وأن قدره أن يكون تابعا لشيخٍ عليم، لأن من لا شيخ له فشيخه الشيطان، حتى يجد نفسه واقفا علي حد الطاعة لأمرهم ونهيهم، وقد علم أن قوام طريق القوم حب وطاعة، فهم

(1). الآية (٥٩) من سورة الفرقان.

وأن قدموا الحب فقد أرفقوا به الطاعة، فيكون في طاعتهم مُراعيا إشارتهم قبل عبارتهم وتلميحهم قبل تصريحهم، يعبد الله على طريقتهم فلا يلتفت إلي سواها، يؤمر أن يفعل فيستجيب، وإلا يفعل فيستجيب كذلك دون أن يسأل عن سبب هذا أو علة ذاك، وهل جني موسي من كثرة سؤاله للخضر إلا إن حُرم من صُحبته (قال هذا فِراق بيني وبينِكَ)[1] على الرغم من أنهم يعلمون إن الله مؤاخذنا بالحجة حين يقول لبعضنا هاتوا بُرهانكم إن كنتم صادقين.

فعلى المُريد مثلًا أن يمتنع عن مجالسة الناس والانخراط معهم في شواغل الحياة وملاهيها، لأن الائتناس بالناس من علامات الإفلاس، فالمُريد الصادق يجد أنسه في حضرة ربه، والمريد الصادق لا يظهر بين الناس ولا يُعرف حاله، فتجد ابن عطاء الله السكندري يقول في الحكم (أدفن نفسك في أرض الخمول، فما نبت مما لم يُدفن لا يتم نتاجه) علي الرغم من أن القرآن الكريم حين يتعرض لوصف عباد الرحمن (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذريتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إمامًا)[2] فمن سأل ربه الإمامة للمتقين هل يكون غامضًا في الناس؟

وعلى المُريد أن يمنع نفسه ليس فقط مما حرم الله، بل عما أطلق بعضة بشرط وحرم البعض الأخر، ثم عما أحل، والمنع يعود هنا إلي ما تجده النفس في إتيان هذا أو ذاك من فرح ولذة، فلو أن المرء يمنح نفسه ما أحل الله وتجد النفس في هذا حظهاَ وشهوتها لكان هذا مدخلا لنفسه وهواها بأن يُغريانه بما

(1). الآية (٧٨) من سورة الكهف.

(2). الآية (٧٤) من سورة الفرقان.

حرم الله، حتى يصل الأمر إلي الامتناع عن ممارسة أعمال البر وأمور الطاعة ما دامت النفس تجد في هذا لذةً واشتهاء.

فلابد للمُريد أن يتخلص من نفسه[1]، لأن العبد الذي يأتي ربه ومعه حظا من حظوظ نفسه فهو كالمكاتب ما بقي عليه مال، فهو لا يزال عبداً لنفسه ما بقيت معه خُلقا من أخلاقها.

فينهض المُريد إلى نفسه وبمعول شيخه إلى ثمار نفسه يقطفها، وإلى أغصانها يقطعها، وإلى جذورها يبترها، وإلى مكامنها يحرقها، فتجده وقد سلب نفسه الحياة ولا يجود عليها بالمنيه، فليت شعري هل هذا هو السبيل الذي نصل به إلى من استخلفنا في الأرض؟ أتُراه قد استخلفنا لأجل الفناء؟ اللهم لا.

ما أصعب ما يُمني به المرء نفسه في هذا الطريق، وما أعجب النتائج فإن ظَفَر ووصل فقد فني بحيث لم تعد له ذات ولا كينونة، وأن هُزم وتوقف نشأت بينة وبين نفسه عداوة فهو يبغضها ولا يقوي عليها، وهل هناك أصعب من أن يبغض المرء فطرته التي فطر الله عليها، لا. ليست فطرته بل هي فطرة الله التي فطر الناس عليها، فهل تُراه يهنأ بعيش بعدها وهو الراعي الذي خذل رعيته والأمير الذي ضيع مملكته.

---

(1) يستخدم اصطلاح "النفس" عند الصوفية بمعاني مختلفة منها أنها هي الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان، ومنها أنها هي الإنسان بالحقيقة بمعني أنها الذات الإنسانيه. انظر في ذلك. إحياء علوم الدين للغزالي. ربع المهلكات. كتاب شرح عجائب القلب، ص٧.

٤. سلطة النص

وإذا كان شيخ الطريق يستمد سلطته من كونه ولي الله، فكذلك يستمد النص الصوفي مصداقيته وسلطته من كونه صادرًا عن أحد أولياء الله، فالولي إذا نطق تكلم بالحق وإذا حكم حكم بالحق، وإذا روي فقد عاين ما رواه، لأن الله قد من عليه بسلطان الحق، فالأولياء في ذلك يماثلون الأنبياء ولكن مع الفارق فإذا كان للنبي الوحي، فإن للولي السكينة، وإذا كان للنبي العصمة فإن للولي الحفظ.

أما المصدر الثاني الذي يستمد منه النص الصوفي سلطته فهو نوعيه المعارف والعلوم التي يتناولها المتصوفة في كتابتهم، فهم يتحدثون عن معارف إلهية وعلوم ربانية، وهي معارف ذات خصوصية ليست متاحة للعوام لذلك وجب عليهم أن يوجزوا وأن يستتروا وأن يشيروا ويرمزوا، لأن العلم علي غير أهله عورة، فقد كان الجنيد يسأله الرجلان فيجيب أحدهما بغير ما يجيب الآخر، وحين يسأل عن ذلك يقول الجواب علي قدر السائل[1]، ولأن التخفي والرمز يكفيهم مؤنة الاتهام في عقائدهم لذلك قال أبو هريرة رضي الله عنه (حفظت عن رسول الله جرابين من علم أما احدهم فبثثته في الناس، وأما الآخر فلو بثثته لقطع مني هذا البلعوم)[2]، وهذا أيضا ما جعل الإمام علي زين العابدين بن الإمام الحسين يقول:

---

(1).ابن عجيبة: إيقاظ الهمم في شرح الحكم. صـــ١٢٨

(2). المصدر السابق صـــ١٢٩.

يا ربّ جوهر علمًا لو أبوح به		لقيل أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستباح رجالٌ مسلمون دمي		يرون أقبح ما يأتونه حسنا
أني لأكتم من علمي جواهره كي		لا يري الحق ذو جهلاً فيفتتنا

فللجوء المتصوفة إلي الرمز والإشارة هدفان:

أولهما: أن لنهج الستر عند المتصوفة هدفًا وقائيًا ضد هجوم علماء الرسوم وأهل الظاهر.

ثانيهما: أن نهج الستر عندهم يرتد إلي مأزق (ضيق اللغة) وهو مأزق لا وجود له في الخطاب الإلهي[1].

لكن معرفة المُريد الصوفي بهذه الأسباب وتلك الدواعي لغموض النص الصوفي ولجوئه إلي الرمز، بالإضافة إلي ما يدعيه علماء القوم من أن هذه العلوم قد حصلوها في الحضرات الإلهية والمقامات العرفانية يجعل الصوفي يؤمن بها ويعتقد فيها اعتقادًا قاصرًا علي الأقل لأنه لا يدري مكنونات هذه النصوص.

فأنظر إلى الإمام عبد الوهاب الشعراني في (الطبقات الكبرى) يورد رسالة للسيد "إبراهيم الدسوقي" يزعم صاحبها أنها قيلت بلغة الطير، فبغض النظر عن مصداقية هذا الزعم، فقد يكون السيد الدسوقي قد ورث نبي الله سليمان فُعلم منطق الطير، فأن هذا يفتح الباب أمام الكثير من الادعاءات والتخيلات والتأويل مما لا نستطيع تصديقه أو تكذيبه، في حين لا يملك

(1).أبو زيد، نصر حامد: دراسة في الفكر الصوفي، صـ١٦١.

الصوفي إلا الإيمان بُمختلف الآراء ومحاوله التوفيق بل التلفيق بين تلك الآراء المتضاربة، لأنه أُمر أن يستقبل الأمور بقلبه وعاطفته، ولأن قداسة النص من قداسة الشيخ ولكل منهما سلطانه.

٥. خاتمة

إن الذى جعلنا نرى آياته في أنفسنا، هو من أمرنا كذلك أن نستكشف آياته فى آفاق الكون الفسيح، وأن نتفاعل معه وننفعل بتغيرات الحياة وتطوراتها، فإن الله قد استخلفنا فى الأرض لعمارتها، وقد قبلنا أمانة الإستخلاف، فهل هناك اعجب لمن يرجوا لقائه من أن يضيع أمانته؟ لذا فقد وجب على هؤلاء أن يخرجوا من ضيق ذواتهم وتسلط وجدانهم، وان يستبدلوا برغبتهم في الفناء أملهم في التواجد واثبات الذات، مهما كابدوا في سبيل ذلك من عناء.

أما وأن ليس كل من يسعى إلي الله ويوقف نفسه له يكون هاربا من أمر ما، فانه كذلك ليس ينبغى على كل من يسلك هذا الطريق ان يوقع نفسه تحت نير هذا الوجه من التسلط، لأن الله الذى اصطفى بعض عباده من خلقه واختارهم دون باقى العباد ليتخذهم رسلا أو أنبياء أو أولياء، لم يغلق فى وجوهنا باب الاجتهاد، بل هو القائل سبحانه (والذين جهدوا فينا لنهدينهم سبلنا)، وأن الآمال لتزداد حين نطالع قوله تعالى (الله الذى يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب)، فبالإضافه الى أن هناك أولياء اجتباء، وهم من جرت عليهم مشيئة الاختيار، فان هناك أيضا أولياء إنابة، وهم من هداهم إليه حين أنابوا،

فعسي من لم يحظ بشرف ان يكون من هؤلاء، ان يمن عليه بفضل ان يكون من أولئك، كما نعي من ذلك أنه من الممكن للمرء أن يتخذ طريقه بمفرده كما قد خلقه الله فردا وكلفه فردا ويبعثه بمفرده كذلك.

ثم هب أن المرء يتخذ لنفسه شيخًا عارفًا يكون له هاديًا ومرشدًا، فهل ينبغي له أن يكون كعبدًا أسير لا يملك من أمر نفسه شيء، أو ليسوا هم القائلون: (اذا رأيتم الرجل يركب الماء ويطير فى الهواء ويخالف شرع الله، فإعلم أنه كذاب) قد يكون الطريق يقتضى الطاعة، ولكن ينبغى ألا تكون هذه الطاعة عمياء، ومصداق قولنا ان فلسفه كتلك لا يمكن ان تكون منهجا لخلق مجتمع قويم، بل هى على اكثر تقدير منهجا لخلق مجتمع من الأمعات، وهذا ما لا يقبله شرعا إلهي ولا عقلا انساني، لأن الله لم يعتمد منهجا مماثلا فى توجيه خطابه الالهى، بل علمنا ان للشريعة وأحكامها علل ومقاصد وضرورات، فكيف نسمح لمن هم دونه ان يتخذو مناهجا كتلك مهما كان ما يدعونه من انهم يقومون بتأديبنا وتربيتنا وتنقيتنا ومن ثم ترقيتنا إلي مقامات عبودية وعرفانية لسنا نعرف عنها شيئًا.

"الصوفية بخير ما اختلفوا، فان اتفقوا فلا خير فيهم". عبارة شهيرة يرددها المتصوفة أجمعين، ولكننا نأمل أن ينتقل هذا الاختلاف من ضرورته بين الشيخ وأقرانه الى مجرد امكانيته بين الشيخ ومريديه.

وعلى الرغم مما تحققه طريقة المتصوفة فى تدوين نصوصهم من فوائد، اذ انها تسمح بقدر أكبر من التأويل واعطائهم مساحه أكبر من الحرية في التعبير، وتكفيهم مؤنة الإتهام فى عقائدهم، لأن اقل ما يمكن أن يتعلل به من

يـــتهم منهم في ملته، أنه قد اسيىء فهمه وأن النص يرمي الى معنى آخر، إلا أنهـــا فـــى الأســـاس طـــريقة تعتمد على معرفتهم بكيفية استقبال المريد لهذه النـــصوص، لأن المريد قد وقع تحت سلطة عاطفته الوجدانية، واصبح يستقبل الأشـــياء بعاطفـــته الجياشـــة، وذوقه المرهف واحاسيسه المتعطشه، ولذا فمن الـــواجب علـــيهم ان تكـــون لهـــم لغة معلومة واصطلاح مستقر كباقى العلوم والمعارف الإنسانية، وهذا يتطلب منا على الجانب الآخر ان نكفل لهم الحق فى التعبير عما يفتعل بذواتهم، وعما يمرون به فى تجاربهم الروحية.